ومن رواياته عن أبي عبد الرحمن السُّلمي[١]، عن محمد بن عبد الله الرازي، عن أبي الحسين النُّوري قال: رأيتُ غلاماً جميلاً ببغداد، فنظرتُ إليه، ثم أردت أن أُكرِّر النظر، فقلت: تلبسون النِّعال الصَّرارة، وتمشون في الطرقات؟ فقال الغلام: أحسنتَ! أتُجمِّشُ[٢] بالعلم؟ ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

تأمَّل بعينِ الحقِّ إنْ كنتَ ناظراً ... إلى صفةٍ فيها بدائعُ فاطرِ
ولا تُعْطِ حظَّ النَّفس فيها لِما بِها ... وكُنْ ناظراً بالحقِّ قُدرةَ قادرِ

محمد بن عبيد الله[٣]

ابن أحمد بن أبي الرعد الحنفي، قاضي عُكْبَرا، تُوفِّي بها يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر، وكان ثقةً.

الماوردية البصرية[٤]

كانت زاهدةً عابدةً صالحة، تجمع إليها النساء فتعظهُنَّ وتؤدِّبهنَّ، قاربت ثمانين سنة، أقامت منها خمسين لا تفطر بالنهار ولا تنام بالليل، ولا تأكل خبزاً ولا رطباً ولا تمراً، وإنما تُطحن لها الباقِلَاء فتتقوَّت بها، وكانت وفاتُها بالبصرة، ولم يبقَ بالبلد إلا من شهد جنازتها، ودُفنت بظاهر البصرة عند قبور الصالحين.

السنة السابعة والستون وأربع مئة

فيها في صفر مرض القائمُ بأمر الله مرضاً شديداً، وانتفخ حلقُه، وامتنع من الفَصْد، فقصد الوزيرُ فخرُ الدولة بابَ الحجرة ليلاً، وحلف بالأيمان المغلَّظة أنه لا يبرح حتى يقع الفَصْد، فأذن في إحضار الطبيب، وافتصد فصلح، وانزعج الناس في الدار

(١) طبقات الصوفية ص ١٦٧ .
(٢) يقال: جمش المرأة؛ أي: غازلها بقرصٍ أو ملاعبة. المعجم الوسيط (جمش).
(٣) المنتظم ١٦/ ١٥٩ .
(٤) صفة الصفوة ٤/ ٤٧ ، والمنتظم ١٦/ ١٥٩-١٦٠ .

والحريم، ونقلوا أموالهم إلى الجانب الغربي، وارتجَّ البلد، ولمَّا تفضَّل الله تعالى بالعافية فرح الناس واطمأنُّوا[1]، فقال الشريف بن البياضي: [من البسيط]

إن كان أرجَفَ مَنْ في قلبهِ مَرَضُ ... بما تكادُ لهُ الأرواحُ تنفطِرُ
ففي السَّلامةِ ممَّا يرجفونَ بهِ ... حلاوةٌ ثمَّ في أفواههم صَبِرُ
وما يضرُّ أميرَ المؤمنين إذا ... أمسى سليماً من لأواءِ ما ذكروا
قد أرجفوا برسولِ اللهِ في أُحدٍ ... فلم يكُنْ منهم نفعٌ ولا ضَرَرُ
واللهِ لو علموا ما في سلامتِهِ ... لقاسموه على الأرواح إن قَدَروا
لكنَّهم شربوا في ظلِّ دولتِهِ ... خمرَ السُّرورِ فقالوا ذاك إذ سكِروا
عفواً وصفحاً أميرَ المؤمنين لهُمْ ... في جنب عفوِكَ أجرامٌ لها خطَرُ
فإن عفوتَ فأهلُ العفوِ أنتَ وإنْ ... أبيتَ ذلك فالأقدارُ تنتظِرُ

وفي صفر عاد الغرق إلى بغداد، ومطرت السماء مطراً متداركاً، وأكثر البنيان لم يكن، فقعد الناس على التُّلول والماء يأتيهم من فوق ومن تحت، ومات خلقٌ كثير، ووقع الوباء في الدنيا، فمات بالرحبة عشرةُ آلاف، ومات معظم أهل خراسان والبصرة وواسط، وهبَّتْ ريحٌ سوداء فرمَتْ معظمَ النخل ببغداد وواسط والبصرة.

وفي ربيع الأول فتح شكلي أمير التركمان عكَّا، وسببه أنه كان بها عند أمير الجيوش بدر الجمالي رجل يُعرف بابن شتحا، وكان رفيع المنزلة عند أمير الجيوش، يثقُ به في أموره، ولمَّا خرج إلى مصر أخذه معه، فلمَّا حصل لأمير الجيوش المالُ والجواهرُ بعث بذلك مع ابن شتحا إلى عكَّا في البحر، ليكون فيها مع أمواله وذخائره التي بها، فكُسِر بهما المركب، فغرق ما كان معه، وكان معه في المركب جماعةٌ من أهل عكَّا، فقال: ما بقي لنا وجهٌ عند أمير الجيوش، فهل لكم في أمر توافقوني عليه يكون فيه السلامة؟ فقالوا: نفعل. وكان أمير الجيوش قد أخذ معه إلى مصر رهائن من عكَّا ستين نفساً من خيارهم، فقال لهم ابن شتحا: إن أمير الجيوش قتلهم. فقابلوه على فِعله، فلطم أهلُهم، وأقاموا المآتم، ووافقوه بالحصار، فكتب ابن شتحا إلى شكلي ـ وكان

(١) إلى هنا الخبر في المنتظم ١٦/ ١٦١.

قريباً منهم وقد أهلك أهل البلد بالحصار ـ فقال: تعالَ في الليل لنفتحَ لك الباب. فجاء بعسكره، وفتحوا له الباب، فدخل فقبض على فارس الدولة النائب عن بدر وابن أبي الليث القاضي وعمال بدر، فضرب رقابهم، واستولى على أموال بدر وذخائره، وقبض على ابنه وزوجته وابنته، وأحضر أبا يعلى بن الأقساسي وقال: أليس بدرٌ زوَّجني هذه ـ يعني ابنته ـ وأنت شاهد عليه؟ قال: بلى. فأحضر القاضي والشهودَ وزوَّجها منه، ودخل بها في ليلته، وأخرج أبا يعلى من عكَّا بعد ذلك؛ لأنه صاحبُ بدر. وقويَ البلدُ، واستفحل أمرُه، وبعث إليه أتْسِز التركي صاحب القدس والرملة، وكان متقدماً على جميع الترك والناوكية بالشام، فقال: ابعَثْ لي زوجةَ بدر وابنَه ونصفَ ما أخذتَ من المال. فامتنع عليه، وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل، وصاهر ابن منزو صاحب دمشق على أخته، وراسل بني كلب، وتقوَّى بهم واستحلفهم، وأخذ رهائنهم، وأعطاهم رهائنه، وكان مسمار أحدُ مُقدَّميهم معه.

وفي هذا الوقت وردت الأخبار أن ملك شاه عبر جَيحون ليأخذ بثأر أبيه، وأنه حاصر تِرْمِذ، وأخذ ولبس خِلْعة الخليفة عليها، وأنه وقعت قطعة من السور وصل إليها النقَّابون وأحرقوها، ودخل العسكر، ونهبوا البلد، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا طغاتكين أخا شمس الملك بن طمغاج خان صاحب بخارى وسمرقند، وأنَّ شمس الملك بعث إلى السطان يلتمس الصلح، فأجابه وصالحه، وعاد السلطان إلى مرو وهو على عزم الوصول إلى بغداد، وأنَّ شمس الملك بعث للسلطان خيلاً وثياباً وطيباً وألطافاً، وبعث إليه السلطان أيضاً عِوَضَ هديته، ووصلت كتب السلطان إلى بغداد بذلك، وتُوفِّي بدر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وكان في خدمة السلطان على تِرْمِذ، فمات بها، ورتَّب نظام الملك ابنه نصر بن بدر مكانه.

وفي جمادى الأولى تُوفِّي محمود بن الزَّوقلية صاحب حلب، ورتَّبها لولده نصر مكانه.

وفي جمادى الآخرة ورد عميد الدولة إلى العراق، وهو كان السبب في صلح ملكشاه، وصلح شمس الملك صاحب ما وراء النهر، وكان ملكشاه يقول: لولا عميد الدولة [ما صالحتُه حتى أنزل على سمرقند، وكان عميد الدولة][1] عاقلاً مدبراً، ولمَّا

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

قدم بغداد خرج الخليفة والخدم والخواصُّ والحُجَّاب لاستقباله، وبعث إليه رسالةً جميلةً أنبأت عن جميل الرأي فيه، فقويَتْ نفسه، وانشرح صدرُه، وخرج معظم أهل بغداد الخواص والعوام سروراً بوروده وسلامته؛ لأنه كان محسناً إليهم.

وفي رجب توفي القائم بأمر الله، وولي عُدَّةُ الدين [بن] الذخيرة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الباب السابع والعشرون في خلافة المقتدي [بأمر] الله

واسمه عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس محمد بن عبد الله الإمام القائم بالله، وكان يُلقَّب قبل الخلافة بعُدَّة الدين، ويكنى أبا القاسم، ولم يكن أبوه أبو العباس يلي الخلافة؛ لأنه مات في حياة أبيه القائم، ومولد المقتدي يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وأربع مئة، وأمُّه أم ولد أرمينية تُسمى أرجوان وتُدعى قُرَّةُ العين، أدركَتْ خلافتَه وخلافةَ ابنه وابنِ ابنه، وكان الذخيرة قد بقي من أولاد القائم ولم يبقَ له سواه، فتوفِّي، فاستشعر الناس انقراض الدولة لعدم ولد البيت القادري وأنَّ من سواهم من الأسرة مخالطٌ العوام من البلد، وجار مجرى السوقة، وأن ذلك ينفر قلوب العامة عن المتولي، فحفظ الله هذا البيت بأن كان الذخيرة قد ألمَّ بجاريته أرجوان، ومات وهي حامل، وتشوَّف الناس إلى حملها، فولدت عدة الدين المقتدي بعد موت أبيه بخمسة أشهر، فوقعت البشائر، ولم يزل جده القائم ضنيناً به حدباً عليه، فلما كانت نوبة البساسيري كان لعدة الدين دون أربع سنين، فسيَّره أهلُه، وحملوه إلى أبي الغنائم بن المحلبان، فسار به إلى الجزيرة، وتنقَّل به وبأمه، [وببنت القائم، ثم ردَّهم إلى بغداد لمَّا عاد القائم، ولمَّا كبر ذُكر على المنابر، ولمَّا احتضر القائم كتب كتاباً بالعهد][1] ولم يزل منذ حين بلوغه إلى أن ولي الخلافة على الستر والسلامة والعفة والصيانة، وحفِظَ اللهُ به هذا البيت، وظهرت كراماته؛ فإن ملكشاه تغيَّر عليه، وأمره بالخروج من بغداد، فقال: أمهلني عشرة أيام. فمات ملكشاه سرعة.

(١) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع السابق من (ب).

ذكر بيعته:

جلس بعد وفاة جدِّه[١] يوم الجمعة ثالث شعبان في دار الشجرة وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء لطيفة وطرحة قصب دُرِّية، ودخل الوزير فخر الدولة وعميد الدولة ومؤيد الملك بن نظام الملك، والنقيبان طرَّاد والعلوي وقاضي القضاة الدامغاني ودُبيس وأبو طالب الزَّينبي وابن جردة ووجوه الأشراف والعدول والأعيان وأبو إسحاق الشيرازي وابن الصباغ وأبو محمد التميمي، وأول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى مُقدَّم الحنابلة.

قال أبو جعفر: لمَّا بايعتُه أنشدتُه: [من الطويل]

إذا سيِّدٌ منا مضى قام سيِّدٌ[٢]

ثم أُرتِجَ عليَّ، فقال المقتدي:

قَؤولٌ بما قال الرِّجالُ فعولُ

وكان الشريف قد بايعه قبل هذا عند غسل القائم، ولُقِّب بالمقتدي بأمر الله، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وأيام، وكان من رجالات بني العباس، له همة عالية، وشجاعة وهيبة، وكان حسن الهيئة والوجه، ضخم الجسم.

وفي شعبان أمر الوزير فخر الدولة المحتسب بنفي المفسدات من حريم دار الخلافة، وبيعِ دورهِنَّ، ومنع الناس أن يدخلوا الحمامات بغير مَيازِر، وأخرب أبراج الحمام والهوادي[٣]، ومنع من اللعب بالطيور لأجل الاطلاع على الناس، ومنع الحمَّامين من إجراء ماءِ الحمَّامات إلى دجلة، وأمرهم بحفر آبار يجتمع فيها الماء، ونهى الملَّاحين أن يحملوا الرجال والنساء في السفن مجتمعين[٤].

وفي شعبان ورد الخبر بقتل ملكشاه عمَّتَه كوهر خاتون، وكانت زوجة أريسغي التركي، وكانت قد انصرفت من العسكر قاصدةً أذربيجان النازوكية المترددين إلى بلاد

---

(١) في (خ): أبيه، والمثبت من (ب).

(٢) البيت للسموأل وهو في ديوانه ص٩١ .

(٣) في (خ) الجرادي، والمثبت من المنتظم، والهوادي من الطير: هي التي تطلب وكرها من مسافات بعيدة وتحمل البطائق والأخبار. ينظر نهاية الأرب في فنون الأدب ٣/ ١٣٦ .

(٤) الخبر بطوله وبنحوه في المنتظم ١٦/ ١٦٤-١٦٦ .

الروم، وكان نظام الملك قد استقرض للسلطان منها خمسين ألف دينار، فجاء لوداعها، فنَمَتْ عليه وتهدَّدته، وأظهرت أنها تقصد النازوكية، [والمقابلة ما عوملت به من القبيح][1] وكانت عند قتل قاروت بك قد انصرفت من الري مستوحشة، ونهبت ما به من أعمال بنيسابور، وعاد نظام الملك إلى ملكشاه وأخبره بما أظهرت وما قد عزمت عليه، فبعث وراءها مئتي غلام، وأمرهم بقتلها، فساروا خلفها وقد رحلت مرحلتين أو ثلاثاً ولم تعلم بهم، وكانت في عسكر كثير، فجاء منهم سبعة غلمان، فهجموا عليها السُّرادق، وقتلوها عَجِلين بعد أن جرحت منهم ونكأت فيهم، ووقعت عليها جاريةٌ من جواريها تفديها بنفسها، فجُرحت عدة جراحات، وجاء باقي الغلمان وحفظوا خيمتها ومالها، وحملوا الجميع إلى ملكشاه، وسأل عن الجارية المجروحة، فأخبروه خبرها، فاصطفاها لنفسه لِما بلغه من نصحها ومحافظتها على عهد سيدتها.

وفي رمضان خرج عميد الدولة ابنُ جَهير إلى ملكشاه لأجل البيعة للمقتدي، وحمل معه ثمان مئة ثوب منوعة وخمسة عشر ألف دينار. وقيل: إنه بعث له عشرة آلاف أخرى.

وفي رمضان التقى أتْسِز التركماني صاحب القدس بشكلي في الساحل، فهزمه، فجاء شكلي منهزماً إلى رفنية، ونزل أتْسِز فحاصر دمشق.

ومن العجائب أنه في شوَّال وقع ببغداد حريقٌ من الجانبين، أكلت النار البلد في ساعة واحدة، وأول ما وقع بدكان خباز بنهر مُعلَّى، فأتت على السوق جميعه، ثم وقعت في مطبخ الخليفة، ثم في باب الأزج، ثم وقعت في باب البصرة والكَرْخ ونهر طابق والمحال الغربية، فصارت بغداد تلولاً كما جرى عليها في الغرق.

وورد الخبر من واسط بأنها احترقت في ذلك الوقت أيضاً، فكان في كتاب ابن قاضيها إلى قاضي القضاة الدامغاني يقول فيه: وإن النار أحرقت البزَّازين والنخَّاسين ودار القاضي الوالد وغيره، حتى أتت على ما فيها من ثياب وقماش وذهب وفضة وحنطة وشعير وخزانة الحكم والسجلات، وخرج القاضي عرياناً بعد أن أشرفنا على الهلاك، وافتقر الناس وجلسوا على الطرقات.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

وفي عيد الأضحى يوم الخميس أو يوم الجمعة قُطعت الخطبة [العباسية من مكة، وأعيدت الخطبة المصرية، وكانت مدة الخطبة][1] بها أربع سنين وخمسة أشهر؛ لأنها أقيمت يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثلاث وستين وأربع مئة، وقُطِعت يوم الجمعة في هذه السنة.

ذكر السبب في ذلك:

لمَّا استولى بدر أمير الجيوش على الديار المصرية والصعيد ولم يبقَ له ما يشغله، راسل ابنَ أبي هاشم في الخطبة، فلم يلتفِتْ، فعدل عنه إلى أعيان بني عمه، وقال: أنتم أولى منه، فلم يلتفتوا، فراسلهم ثاني مرة وقال: الحُجَّة التي كان يحتجُّ بها قد زالت، وهي وفاةُ ألب أرسلان وخليفةِ بغداد، ولم يبقَ في رقبته عهد، وهذه الدولة التي نحن فيها لكم ومنكم، وقد فعلتم ما لا ينغسل إلا بالرجوع، فإن أبيتم كاتَبْنا بني عمكم الأشراف، أخرجناكم من البلد، وقوَّيناهم بالمال والرجال. فاجتمعوا [وبعث لهم المال واجتمعوا][2] فاجتمعوا بابن أبي هاشم، وأعادوا عليه ما قال، وقالوا: المصلحة إعادة الخطبة للمصريين، وإلَّا خرج الأمر من أيدينا، وكان الغلاء قد وقع بالحجاز، وقطع عنهم الميرة، فخاف ابنُ أبي هاشم، فقبض المالَ الذي بعث به أمير الجيوش، وأعاد الخطبة كارهاً غير مختار، وقلعت ألقاب القائم والسلطان من لوح كان على زمزم، وحُطَّت الكسوة الخراسانية، وجُعِلَ مكانها كسوة بيضاء دبيقية، عليها ألقاب المستنصر صاحب مصر.

وفيها قَتَل أَتْسِز أميرَ التركمان شكلي بطبرية، وأوقع بولد قُتُلْمِش؛ كان شكلي قد كتب إلى ابن قُتُلْمِش التركي ـ وكان في أطراف الروم ـ يحثُّه على قصد الشام ليضاف إليه: ابن قتُلْمِش هو ابن عم السلطان ألب أرسلان، وكان في كتاب شكلي إليه: إلى ابن قُتُلْمِش، أنت من السلجوقية وبيت الملك، وإذا أطعناك وكنا في خدمتك تشرَّفنا بك وافتخرنا، وأتْسِز ليس من بيت الملك، ولا نرضى باتباعه وطاعته.

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) مابين حاصرتين من (ب).

وهوَّن عليه أمر أتْسِز والشام. قال: وقد جاءتنا من مصر وعودٌ بالأموال إذا كسرناه وأبعدناه عن الشام، فجاءه ابن قُتُلْمِش، فاجتمعا وسارا إلى طبرية، وأظهروا طاعة صاحب مصر، فسار إليهم أتْسِز من القدس، وخرجوا إليه، وساعدهم أهلُها واقتتلوا، فهزمهم أتْسِز، وقتل شكلي ولدَه صبراً بين يديه، وأطلق أباه؛ لأنه كان شيخاً كبيراً، ونهب طبرية، وقتل أهلها، وأسر ابنَ قتُلْمِش وأخاً له صغيراً وابنَ عمه، وكان لابن قُتُلْمِش سبع سراري تركيات مثمنات، فقالت له إحداهنَّ وكانت حاملاً منه: تدعنا يفضحنا الأعداء؟ قال: فما أصنع؟ قالت: اقتلنا جميعاً. فقتلهنَّ.

وأسلم ولد شكلي، وجاء إلى عكَّا، فأغلق أهلُها الباب في وجهه وكاتبوا جوهر المدني خادم صاحب مصر وكان مقيماً بصور، فقدم عليهم، فجاؤوا إليه وسلَّموا إليه البلد، وأعادوا الخطبة لصاحب مصر، ووصل إلى الشام في هذا الشهر ثلاثة آلاف من الغلمان من عسكر ملكشاه إلى أتْسِز كان كاتبهم، وورد ـ أيضاً ـ أخٌ لابن قتُلْمِش ـ كان في الروم ـ إلى حلب فحصرها، وكان محمود بن الزَّوقلية قد مات، وملَكَ ابنُه نصر بن محمود، فخرج إليه نصر بأحداث حلب فقاتله ودفعه وقال: أنا نائب السلطان، قد[1] كنتَ مطيعاً للسلطان فارحَلْ عنا. وأرضاه بمال، فرحل ونزل بأرض سلمية، وراسل أتْسِز في مضيٍّ[2] أخيه، فقال أتْسِز: قد راسلتُ السلطان بسببه، وأنا متوقعٌ الجواب، فإن رسم أنفذتُه إليه، وإن رسم شيئاً آخر كان. فقصد ابنُ قُتُلْمِش أنطاكية وكان في قلبه من أحداث حلب، حيث قاتلوه نهبوا أصحابه، وقتلوا منهم جماعة، وحصروا أنطاكية، وقرَّر عليهم عشرين ألف دينار في كل سنة؛ ليحمي سوادَها من الغارات، واتَّفق أنَّ طائفة من التركمان الذين جاؤوا طالبين أتْسِز نزلوا على حلب، وخرج إليهم عدد كثير من أهلها، فسار ابن قُتُلْمِش من باب أنطاكية إلى حلب، فأخذ القافلة، وقطع آنافهم، ونهبهم؛ تشفياً بأهل حلب، وقاتل من التركمان مَنْ قاتله، ورجع فأقام على باب أنطاكية للخفارة والحماية.

---

(١) في (ب): فإن.

(٢) في (ب): في معنى.

وفي أواخر ذي الحجة ورد عميد الدولة ابنُ جَهير من عند ملكشاه، وقد أخذ البيعةَ للمقتدي على السلطان ونظام الملك والحاشية والعسكر عن غير صفاء من نظام الملك ولا تحقيق، بل مغالطة، ودفع لما في قلبه من الوزير فخر الدولة ابن جَهير مما نقل إليه أعداؤه.

وفيها تُوفِّي

الحسن بن عبد الودود[١]

ابن عبد المتكبِّر بن المهتدي، أبو علي، الهاشمي، ولد سنة ثمانين وثلاث مئة، وسمع الحديث الكثير، وقُبِلَتْ شهادتُه عند القضاة، وتُوفِّي في ربيع الآخر، ودُفن عند جامع المنصور، وكان سيداً صدوقاً.

القائم بأمر الله، أميرُ المؤمنين[٢]

واسمه عبد الله بن أحمد، القادر، وكنيته أبو جعفر، وأمه قطر الندى، أم ولد، رومية، أدركت خلافته، وماتت في سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة.

ولد القائم يوم الخميس سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، وولي الأمرَ بعد أبيه وعمره إحدى وثلاثون سنة، في ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة.

وكان جميلاً، مليحَ الوجه، أبيضَ اللون، مُشرباً حمرةً، أبيضَ الرأس واللحية، متديناً، ورعاً، زاهداً، عالماً، في وجهه أثر صفار من قيام الليل، وكان يسرد الصوم، وكان قليل الجماع؛ فلهذا قَلَّ نسلُه، وكان سبب تركه للجماع أنه جامع ليلة جاريةً له وبين يديه شمعة، فرأى صورتَه على الحائط صورةً شنيعةً، فقام عنها وقال: لا عُدْتُ إلى مثلها. وامتنع بعدما رجع من الحديثة عن أكل الطيبات، واقتصر وقتَ إفطاره على ثردة، فضعُف، فعمدت جاريةٌ له فصنعت له ثردةً في مرقة دجاجة، فلمَّا رآها قال لها: لا تعودي إلى مثلها.

وكان يحبُّ الصالحين ويبرُّهم ويزورهم في الليل، وكان كثير الصدقات، وافر الإحسان.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٦٧-١٦٨ وتحرف «الحسين» في (ب) إلى: الحسن.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٧ .

ذكر وفاته:

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب فُصِدَ القائمُ بأمر الله من ماشرا[١] لحِقَتْه عن أكل كمأة مشوية في جدي وقطايف بدهن الفستق، وأُخرِجَ مئةٌ وخمسون درهماً دماً فسكن مابه، وقد كان جسمُه منذ ورد ما ورد من حديث ذلك الماء الغاشم، وفعله ما فعل بالدار والحرم من الغَرَقِ طرق قلبه من المصائب في ذلك والأمراض تتداركه، فلمَّا كان في يوم فَصْدِه نام ولم يكن عنده أحد إلى آخر النهار، فانتبه وقد انفجر فِصادُه، وخرج منه دمٌ كثيرٌ، وسقطت قوَّتُه، وانقضَتْ مُدَّتُه، ووقع اليأسُ منه، وانتفخ وجهُه وأطرافُه، وكثُر الإرجافُ به، وظهرت أماراتُ الخوف عليه، ولمَّا أحس القائم بانقراض المُدَّة استدعى الأميرَ عدة الدين وأجلسه بين يديه، وقال له: قد استخدمتُ ابنَ أيوب وابنَ المُسلمة وابن دُرُسْت وابنَ جهير، فما رأيتُ أوفقَ وأصلحَ للدولة من ابن جَهير وولده الصحيح المقاصد المأمون على الدولة والمال، الجيد الرأي والمقال، فلا تعدِلْ عنهما ولا تخالِفْهما. وأوصاه بهما، فقبَّل عدة الدين يده وبكى، وقال: سمعاً وطاعة. وأحضر الدَّواة، وكتب القائمُ رُقعةً بذلك، وقال له: اكتُبْ جوابها بخطِّك بالإجابة والتعويل على عميد الدولة في وزارتك. فكتب، وأُحضِرَ قاضي القضاة والنقيبان من الشهود، أبو محمد ابن أخت قاضي القضاة، وأبو الحسين ابن السبي مؤدِّب الأمير، وأبو الحسين البيضاوي شيخ الشهود، في يوم الأحد تاسع شعبان، وأقاموا في الديوان إلى الليل، ثم استدعوا مع الوزير إلى الحجرة ولم يصِلْ غيرُهم، وكان الخليفة من وراء شُبَّاك مسنده والأمير عدة الدين قائمٌ على رأسه، والقوم يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، وأُخرجت رُقعةٌ فقال: اشهدوا بما تضمَّنتِ الرُّقعة التي كتبتُ فيها سطري بخطي. فقالوا: السمع والطاعة. وأُسبِلَت الستارة، وخرج الجماعة، وكان مضمونُ الرُّقعة ولايةُ العهد للأمير عدة الدين، وردَّ الأمر إليه، والتعويلَ عليه، وأن لا يُغيِّر على الخدم وغيرهم شيئاً، وكان في الرُّقعة:

(١) الماشرا: ورم حار عن ورم صفراوي يصيب الوجه، وربما غطى العين. التعريفات للمناوي ورقة ١٠٧.

بسم الله الرحمن الرحيم:

إنَّ أمير المؤمنين بحُكم ما وكَلَه اللهُ إليه من أمور عباده وبلاده، وأوجبَ عليه من صلة طريقه في الإحسان إليه، رأى أن يُفوِّض أمورَ المسلمين والنظرَ في مصالحهم وإسباغَ ظلِّ المعاطفة على أكابرهم إلى الحدِّ الذي يُخلي مشاربهم من الكدر، ويُعري ملابِسَهم من ملابس الحَذَر، فكذلك اقتضَتْ عزائمُه الميمونة إحضارَ وزيرِ دولته محمد بن محمد بن جَهير وولدَه محمد، ... وذكر الجماعة المُسَمين، وحين مثلوا بين يَدَيْ سُدَّته، أنعم متبرعاً بمشافهة سلالته [الطاهرة] [1] أبي القاسم عبيد الله بن محمد بن أمير المؤمنين بتولية أمر المسلمين، وتصييره خليفته بعده في العالمين، وذكر ما يقتضي الوصية ويتضمن الإحسان إلى الناس، واتَّفقت وفاتُه يوم الخميس الثالث عشر من شعبان، وجلس الوزير فخر الدولة وولده عميد الدولة في الديوان على الأرض حافِيَين، وقد خرقا ثوبيهما، ونحَّيا عمامتيهما، وطرحا رداءين لطيفين عِوَضَهما، وفعل الناس مثل ذلك، ومنع المقتدي الجواري والخدم من الصراخ واللَّطم، وغُلِّقت الأبواب، وكان القائم قد أوصى بأن يُغسِّله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي، وأُعْطِي ما كان عنده وعليه، فامتنع ولم يقبل شيئاً.

وقال أبو محمد التميمي: ما حسدتُ أحداً قطُّ إلَّا الشريفَ أبا جعفر في ذلك اليوم، وقد نال مرتبة التدريس والتذكرة والسفارة بين الملوك، وروايةَ الأحاديثِ، والمنزلةَ اللطيفة عند الخاصِّ والعام، فلمَّا كان ذلك اليوم خرج علينا الشريف وقد غسَّل القائم عن وصيةٍ منه بذلك، وأمر له بمال وبما عنده، وأعطاه الأمير عدة الدين جميعَ ذلك فلم يأخذ منه شيئاً، وكان له قيمة، وأخرج منديلاً من كمِّه نشَّف به القائم، وقال: هذا يكون في كفني. ثم خرج علينا ونحن قعود على الأرض كلٌّ منا قد مزَّق ثوبه، وغيَّر حالته على قدر منزلته في الدولة، وهو على حاله لم يغيِّر شيئاً، ومضى إلى مسجده، فعلمتُ أن الرجل هو ذاك.

ثم انتقل الوزير والجماعة من الديوان إلى صحن السُّلَّم بعد صلاة الظهر، وجلس المقتدي على كرسيٍّ، ودخل عليه الوزير عميد الدولة والقضاة والأعيان فبايعوه بالخلافة، وبرز المقتدي من وراء السَّبيبة[2] فصلى بالناس العصر، وبعد ساعة حُمِلَ

(١) ما بين حاصرتين من المنتظم ١٦/ ١٦١-١٦٣ ، والكلام منه.

(٢) السبيبة: شقة من الثياب. اللسان (سبب).

تابوت القائم على سكون ووقار من غير صياح ولا عويل، وصُلِّي عليه وكُبِّر أربعاً، ونُقل إلى حجرة كانت برسم جلوسه فدُفِنَ فيها، وجلس الوزير أبو عميد الدولة في صحن السلم ثلاثة أيام، وكان أبو الأغر دُبيس قد استُدعي في مرض القائم فقدم يوم الخميس بكرةً، ومات القائم بعد حضوره، ودخل مع الناس، وبايع المقتدي، وحضر [العزاء][1] مع الوزير والجماعة، وخرج في اليوم الرابع توقيع التعزية والنهوض من العزاء، وغُلِّقت الأسواق، وعُلِّقت المسوح، وفُرشت بالبواري، وناح النُّواح، ولطم الهاشميات بالحريم ليلاً بالطرف.

وعاش القائم خمساً وسبعين سنة وثمانية أشهر وأربعة وعشرين يوماً ، وقيل: أربعاً وسبعين سنة ـ وأقام في الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ويوماً ـ وقيل: وخمسة وعشرين يوماً، وقيل: وثمانية وأربعين سنة ـ وكان رَبْع القامة، غليظَ المحاسن، في وجهه أثرُ جُدَريٍّ وصفار من أكل الطين.

وأُحضِرَ نورُ الدولة ابنُ مَزْيَد إلى الديوان والجنائبُ بين يديه من عند الخليفة، وأُعطيَ لواءً أبيضَ مكتوباً عليه بسواد، وقميصاً من ثياب القائم التمسه، وامتنع من الخِلَع التي عُرِضَتْ عليه لأجل موت الخليفة، وحزن عليه حزناً شديداً، وسار من يومه إلى بلده، وإنما استُدعي إلى بغداد خوفاً من فتنة؛ فإنَّ العيَّارين واللصوص كانوا قد استدانوا على موت القائم لينهبوا دار الخلافة ودُور الناس، فاحترز الوزير فخرُ الدولة، وأقام الغلمان على أبواب دار الخليفة وعلى الدروب، وكانت النفوس خائفةً وَجِلةً، فكان من قضاء الله تعالى من السكون والهيبة مالم يكن في الحساب، وكأنَّه لم يَمُتْ سلطان، ولا فُقِدَ صاحبُ العصر والزمان، رحمه الله.

عبد الرحمن بن محمد[2]

ابن المُظفَّر بن محمد بن داود، أبو الحسن بن أبي طلحة، الداودي، الحافظ، وُلِدَ سنة أربع وسبعين وثلاثة مئة، وسمع الحديث، وقرأ الفقه، ودرَّس، وأفتى ووعظ،

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) المنتظم ١٦/ ١٦٨-١٦٩ .

وصنَّف، وكان له حظٌّ من النظم والنثر، وكان لا يفتر عن ذكر الله، وقع في بلده نهبٌ فامتنع من أكل اللحم سنين.

ودخل عليه نظام الملك زائراً له، فقعد بين يديه فوعظه، فكان من جملة ما قال: إنَّ الله قد سلَّطَكَ على عباده فانظر كيف تُجيبه إذا سألك عنهم، وإنما أنت في أضغاث أحلام، وقد رأيتَ مصارع مَنْ تقدَّمك. فبكى نظام الملك.

وكانت وفاة الداودي ببوشنجة.

سمع الحديث من أبي الحسن بن الصلت وأبي عمر بن مهدي وخلقٍ كثير.

وروى عنه أبو الوقت عبد الأول صحيحَ البخاري، وأنشد أبو الوقت من شعره فيما رواه عنه: [من الخفيف]

كان في الاجتماعِ للناس نورٌ ... فمضى النورُ وادلهمَّ الظلامُ
فسدَ الناسُ والزمانُ جميعاً ... فعلى الناس والزمان السلامُ

عبد السلام بن أحمد[1]

ابن محمد بن عمرو، أبو الغنائم، نقيب الأنصار، ولد سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، وسمع الكثير، ولقي الشيوخ، وتُوفِّي في شعبان، ودُفِنَ بمقبرة جامع المنصور.

أبو الحسن بن علي[2]

ابن الحسن بن علي بن الطيب، الباخَرْزي، صنَّف «دمية القصر في شعر أهل العصر»، والعماد الكاتب حذا حَذْوَه، فكان الباخَرْزي فريدَ دهرِه، وله ديوان مشهور، ومن شعره: [من الكامل]

قالوا التحى ومحا الإلهُ جمالَهُ ... وكساهُ ثوبَ مَذَلَّةٍ ومَحاقِ
كتبَ الزمانُ على محاسِنِ وجهِهِ ... هذا جزاءُ مُعذِّبِ العُشَّاقِ

ومن شعره أيضاً: [من الكامل]

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٦٩.

(٢) معجم الأدباء ١٣/ ٣٣-٤٨.

أقْوَتْ مغانيهم[١] بشطِّ الوادي فبقيتُ مقتولاً بذاك النادي[٢]
وسكرتُ من خمرِ الفراقِ فرقْرَقَتْ[٣] عيني الدُّموعَ على غناءِ الحادي
قالَتْ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ لاقَيتُه من حاضرٍ أو بادي
أنا في فؤادك فارْمِ طرفَكَ نحوَهُ تَرَني فقلتُ لها وأينَ فؤادي

ومن شعره أيضاً: [من الطويل]

أرى حضرةَ السُّلطانِ تقضي عُفاتُها إلى روض مجدٍ بالسماحِ يجودُ
فكم لجباهِ الرَّاغبين لديهِ مِنْ مجالِ سجودٍ في مساجد جودُ

وقال: [من الطويل]

زكاةُ رؤوسِ الناسِ في عيدِ فِطْرِهِمْ بقولِ رسولِ الله صاعٌ من البُرِّ[٤]
ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصدَّقي بفيكِ علينا فَهْوَ صاعٌ من الدُّرِّ

وقال: [من الطويل]

وإنَّ اغترابَ المرءِ من غيرِ فاقةٍ ولا حاجةٍ يسمو لها لَعجيبُ
وحسبُ الفتى ذُلًّا وإنْ أدركَ الغنى وقد نالَ ملكاً أن يُقال غريبُ

ومن نثره يصف رجلاً:

اكتحلَتْ بغُرَّتِه الزَّهراء، واستضاءت بزهرتِه الغَرَّاء.

وقال: له همٌّ تنطحُ الجوزاء بالقِمم، ومحلٌّ يعصر عنقودَ الثُّريا تحت القدم.

وقال: الكريم مرتجى، إن أساء بأنه يرتجى، وسألزم حاجبَه حتى يقضي من حقي واجبَه، ولا أُفارق حضرتَه حتى يفارق الآسُ خضرتَه.

وبلغه عن إنسان تهديد قال: أمَّا تهديدُ فلان وإيعادُه وإبراقُه وإرعادُه فما أولاه بأن ينساني، ويتركَ في الغد لساني، فلستُ بالذي يتضعضع من سنانه، ولا يتقعقع من شنانه، وكيف أُجرب ذُباب السيف على ذُباب الصيف.

---

(١) في معجم الأدباء: معاهدهم.
(٢) في معجم الأدباء: بشطِّ الوادي.
(٣) في معجم الأدباء: ورقَّصت.
(٤) في (ب): والتمر.

قُتِل الباخَرْزي على مجلس الشرب في هذه السنة، وذهب دمُه هدراً، سامحه الله تعالى.

وصنَّف أبو الحسن عليٌّ البيهقي كتاباً سمَّاه «وشاح دمية القصر» وهو من جنس الذيل لكتاب الباخَرْزي، وكان البيهقي فاضلاً فصيحاً، وهو القائل: [من الطويل]

يشيرُ بأطرافٍ لطافٍ كأنَّها أنابيبُ مسكٍ أو أساريعُ مندلِ
ينمُّ على ما بيننا من إشارةٍ نسيمُ الصّبا جاءت بريَّا القَرَنفُلِ

علي بن الحسين[1]

ابن أحمد بن الحسين، أبو علي، التغلبي، ويُعرف بابن صَصْرَى، دمشقي، ذكره الحافظ ابن عساكر وأثنى عليه، وتوفِّي بدمشق، حدَّث عن تمام بن محمد وغيره، وروى عنه الخطيب وغيره، وكان ثقةً.

وأصل بني صَصْرَى من قرية بالموصل، وسكنوا دمشق.

علي بن عبد الملك[2]

أبو الحسن، المعدَّل، كان حسن الصوت، عالماً بالقراءات، فاضلاً، تُوفِّي في شعبان، ودُفن بباب حرب، وكان ثقة.

كوهر خاتون

عمة السلطان ملكشاه، أخت ألب أرسلان، كانت دَيِّنةً عفيفةً، صادرها نظام الملك لمَّا مات أخوها ألب أرسلان، وأخذ منها أموالاً وجواهر، وخرجت إلى الري لتمضي إلى الناوكية تستنجد بهم على قتال نظام الملك، فأشار نظام الملك على السلطان بقتلها، وقال: اقتُلْها وإلَّا فَتَحتْ علينا باباً عظيماً. فقتلها، ولمَّا وصل الخبر إلى بغداد ذمَّ الناسُ نظامَ الملك وقالوا: ما كفاه بناء هذه المدرسة النظامية، وغصبُه لأراضي الناس، وأخذُ أنقاضهم حتى دخل في الدماء. فأشار على ملكشاه بقتلِ عمه قاروت بك وخنْقِه بوَتَر، وكحَلَ أولاده، وقتل عمَّته، وبلغ نظام الملك فقال: ما أقام هذه الشناعة عليَّ إلَّا فخر الدولة ابن جَهير.

---

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٣٤٩-٣٥١ ، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٦٩ ، وتاريخ الإسلام ٧/ ٢٦٦ .

(٢) المنتظم ١٦/ ١٦٩-١٧٠ .

محمد بن الحسين[١]

ابن أحمد بن منصور، الحِميري، القاضي، الكوفي، ولي القضاء بدمشق والخطابة نيابةً عن الشريف أحمد الزيدي، ثم خرج إلى طرابلس فأقام بها حتى تُوفِّي، وكان يصحب الوزير ابن الماسكي قبل وزارته، فلمَّا ولي الوزارة قصَّر في حقِّه، فكتب إليه: [من الوافر]

أسيِّدَنا الوزير نسيتَ عهدي ... وقد شبَّكتَ خمسكَ بين خمسي
وقولُكَ إن وَليتُ الأمرَ يوماً ... لأتخذنَّ نفسَكَ قبل نفسي
فلمَّا أنْ وَليتَ جعلتَ حظِّي ... من الإنصافِ بَيْعَكَ لي ببَخْسِ

محمد بن عبد الله بن عبيد الرحمن[٢]

أبو الحسين، الدمشقي، يُعرف بابن أبي العجائز، الأزدي، سمع الحديث، وتُوفِّي بدمشق، وكان ثقةً.

محمد بن علي[٣]

ابن محمد بن موسى بن جعفر، أبو بكر، الخياط، البغدادي، المقرئ، ولد سنة سبع وسبعين وثلاث مئة، تُوفِّي في جمادى الآخرة، ودُفن بمقبرة جامع المنصور، وكان قد توحَّد في زمانه بعلم القراءات، وسمع الحديث، وكان فاضلاً ثقةً.

محمود بن نصر بن صالح[٤]

صاحب حلب، ويُعرف بابن الزَّوقلية، وكان عمُّه عطية قد أخذها منه، فحصره مدةً حتى أخذها، وقد مدحه أبو الفتيان محمد بن حَيُّوس، فقال لمَّا أخذ حلب: [من الطويل]

---

(١) تاريخ دمشق ٥٢/ ٣٣٨.

(٢) تاريخ دمشق ٥٣/ ٣٦٦-٣٦٧، وفيه أن وفاته كانت ببيروت.

(٣) المنتظم ١٦/ ١٧٠.

(٤) المنتظم ١٦/ ١٧٥، ولكن جعله في وفيات سنة ٤٦٨هـ.

أبى اللهُ إلَّا أن يكونَ لكَ السَّعدُ فليسَ لِما تبغيه منعٌ ولا رَدُّ
قضَتْ حلبٌ ميعادَها بعد مَطْلِها وأطيبُ وصلٍ ما مضى قبلَهُ صَدُّ
تهزُّ لواءَ النصرِ حولَكَ عصبةٌ إذا طلبوا نالوا وإن عقدوا شدُّوا
وخطيَّةٌ[1] سمرٌ وبيضٌ صَوارِمٌ وضافيةٌ[2] زَغْفٌ[3] وصافنةٌ جُرْدُ

وله قصائد، وكان محمود ذا فضلٍ ومروءةٍ وسماحةٍ وسخاءٍ، جواداً، ممدَّحاً، كريمَ الأخلاق، ولمَّا أخرج العميد عمَّه عطية من حلب مضى إلى بالِس فأرسل إليه مناشير بإقطاعات ومال، فلم يرضَ، ومضى إلى القسطنطينية مستصرخاً بملك الروم، فمات عنده في ذي الحجة سنة خمس وستين وأربع مئة، وكانت وفاة محمود ليلة الخميس ثالث عشر شعبان الليلة التي مات فيها القائم بأمر الله، وسبب موته أنه عشق جارية لزوجته، وكانت تمنعه منها، فماتت الجارية، فحزن عليها، ومات بعد يومين، ولمَّا مات وقع بين العسكر الخلاف، وكان محمود قد أوصى إلى ولده أبي المعالي شبل بن محمود، وأسكنه القلعةَ، والخزائن عنده، وأسكنَ ولده نصر بن محمود البلد، وكان كارهاً له، فكانت العساكر مائلة إلى نصر، وكان شبل بن محمود صغيراً، فاستولى عليه النساء والخدم، فبذل نصر العطاء، ونشر العدل، فمالَ الناس إليه وملَّكوه، وكان نصرٌ مُمدَّحاً، وقد مدحه ابن حَيُّوس بقصائد منها: [من الطويل]

كفى الدينَ عِزًّا ما قضاهُ لكَ الدهرُ فمَنْ كانَ ذا نذرٍ فقد وجبَ النَّذرُ
ثمانيةٌ لم تفترِقْ مُذْ جمعتَها فلا افترقَتْ ما افترَّ عن ناظرٍ شُفْرُ
ضميرُكَ والتقوى وجودُكَ والغنى ولطفُكَ والمغنى وعزُّكَ والنَّصرُ
وقد جاد محمودٌ بألفٍ تصرَّمَتْ وغالبُ ظنِّي أن سيَخلِفُها نصرُ

فأعطاه ألف دينار، وقال: واللهِ لو قال: سيُضعِفُها نصر، لأضعفْتُها له. وكان على بابه جماعة من الشعراء، فكتبوا إليه: [من الطويل]

على بابِكَ المعمورِ مِنَّا عصابةٌ مفاليسُ فانظُرْ في أمورِ المفاليسِ

(١) الرماح الخطيَّة: هي المنسوبة إلى خط موضعٍ باليمامة. الصحاح (خطط).
(٢) الدروع الضافية: الدروع السابغة. اللسان (ضفا).
(٣) الزَّغف: الدرع اللينة الواسعة المحكمة.

وقد قنِعَتْ منكَ العصابةُ كلُّها بعُشرِ الذي أعطيْتَهُ لابنِ حَيُّوسِ
وما بينَنا هذا التَّفاوتُ كلُّهُ ولكن سعيدٌ لا يُقاسُ بمنحوسِ

فقال: ولِمَ بعُشرٍ؟ وهلَّا قالوا: بمِثْل. ثم وصلهم وأحسن إليهم.

وقُتِلَ نصر في السنة الآتية.

أبو الفتح منصور بن أحمد[1]

ابن دارست، وزير القائم بأمر الله، كان له مالٌ عظيم، فقيل للقائم: هذا أمين وهو غني النفس. فاستوزره، فلم يكن له دربة بالوزارة، وكان سيئ التدبير.

السنة الثامنة والستون وأربع مئة

فيها في يوم الثلاثاء ثالث المُحرَّم خرج مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد يريد والده، وكان أبوه قد مرض، وخرج معه أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد البيضاوي الشاهد رسولاً من الديوان إلى إبراهيم بن مسعود صاحب غزنة يخبر بوفاةِ القائم وإقامة المقتدي.

وفي يوم الاثنين سابع صفر فُتحت قلعة منبج، وارتُجعت من يد الروم بعد حصار طويل سلَّمها الحافظ لها بأمان إلى نصر بن محمود صاحب حلب، وأعطاه إقطاعاً ومالاً، وكانت مدة بقائها في يد الروم سبع سنين وشهراً، فإنها أُخذت في المُحرَّم سنة إحدى وستين وأربع مئة.

وفي صفر ورد العميد أبو نصر إلى بغداد مطالباً للديوان بمئة ألف دينار من إقطاعه وإقطاع حواشيه، وقال: العساكر كثيرة، وما عند السلطان مالٌ. فلم يُجِبْه الخليفةُ، وأخرج عميد الدولة وظفر الخادم إلى السلطان بهذا السبب، ولم يلتفت العميد إلى مجيء الجواب، بل أدخل يده في الإقطاع، وصرف بُوَّاب الخليفة وولَّاها الأعاجم، وورد سعيد الدولة الكوهراني إلى بغداد بسبب الوزير ابن جَهير، وعزله لأجل نظام الملك، فخرج الوزير إليه فتلقَّاه، فلم يلتفت إليه، ونزل أصحابه في دور الناس،

(١) المنتظم ١٦/ ١٧٠.